

الفصل الثاني عشر

السحر

لما كان السحر من أقدم ما عرفه الانسان البدائي ، إنسان ما قبل التاريخ ، فقد رأينا أن نعقد له هذا الفصل . هذا والسحر يطلق ، عامة ، على قوة الاتيان بالعجائب وممارستها باستخدام عوامل فوق الطبيعة مفروض وجودها عند من يمارسون السحر . وتدور حول السحر نظريات ، منها نوعان : النظرية الشخصية والنظرية الموضوعية : فأما الشخصية فهي المراسم التي يضعها ممارسو السحر له بما يتفق معه ، ومن هنا كانت المراسم التي لا تصبغ بصبغة دينية ، تعد سحراً . أما النظرية الموضوعية فتعد السحر مستقلاً عن الدين ، ولهذا كان للسحر خواصه وأصله النفساني ، وكان طريقاً الى علم همجي يعتمد على قوانين تخيلية مفروض أنها تعمل على منع سير النظام المستند إلى قوانين الطبيعة

وعند « إ . ب . تايلور » أن مميزات السحر هو عدم صحتها ، إذ أنها خليط مشوش من المعتقدات والممارسات التي يؤلف اتحادها كل ما ليس له في الطبيعة سبب ونتيجة . ومن أنواع السحر ، العنصر الروحي وهو ينتظم الكائنات الروحية وأشباح الموتى والشياطين والآلات . أما العنصر غير الروحي فإنه يعتمد على القوى المتصورة واتصالاتها في الطبيعة ، أي أنها منطق غير تام فهي اتخذ فكرة غير صحيحة على أنها صحيحة . ومن أمثلتها أن الهندي الأمريكي ، اذا ما رسم صورة غزال وضوب إليه سهماً أو طلقاً ، توقع أن يقتل غزالاً حقيقياً في اليوم التالي

ومن قبيل هذا : سحر المحاكاة وهو أن يعمل الساحر عملاً يشبه العمل المقصود فإذا أراد استئزال المطر ملأ أناء من الماء ووقف على ربوة وصبه معتقداً أن السماء ستفعل فعله . وإذا أراد أن يقتل خصماً له ، رسم صورته على ورق أو مثلها في طين ثم يتلفها معتقداً أن ما يحدث للصورة أو التمثال يحدث للشخص نفسه . أما سحر العدوى فهو أن يأخذ الساحر أو يعهد إلى أحد أن يحضر له شيئاً من لباس الشخص المطلوب إذاه فيتلف هذا الشيء فتنتقل عدوى التلف من هذا الشيء إلى الشخص نفسه . وكان المصريون يؤمنون بسحر المحاكاة فقد وجدت بعثة المانية ، ٢٩٠ شقفة من الفخار عليها أسماء أعداء مصر في الخارج والداخل ممن كانوا يحاربون الحكومة أو يخرجون عليها . وعند البعثة ان المقصود من كتابة هذه الاسماء على الفخار هو كسر الفخار وتحطيمه حتى يحدث للأعداء ما يحدث للفخار وهو أن ينهزموا وينكسروا . أما سحر العدوى فإن العامة تمارسه الآن في مصر في الرقية فانهم إذا رقوا أحداً من مرض يعتقدون أن العين هي أصله يأخذون « أثراً » من لباس صاحب العين ويجرقونه ويرقون به المصاب فيشفى على زعمهم

وعند « الأثرى المصري محرم كمال ، أمين المتحف المصري » أن « ما ندعوه الآن بالسحر قد ورثناه عن المصريين القدماء . فقد اشتهرت مصر في قديم الزمان بالسحر ، وإلى الآن لا تعدم قرية من قرانا ساحراً تضفي عليه خيراتها وتضع فيه ثقتها ويستمتع فيها بالنفوذ والثقة اللذين كان ينعم بهما سحرة العصور القديمة » .

كان المصري القديم يلجأ إلى الساحر إذا أراد التخلص من عدوه ، وتخبرنا النصوص بأن الساحر كان يعذب هذا الشخص بما يطلقه عليه من أحلام مزعجة وأشباح مرعبة وأصوات مستعربة ، بل أن الساحر كان يسلط عليه الأمراض

فتفتك قواه وتهده بدنه . وكان الساحر قادرا على أن يجعل النساء يتركن أزواجهن ويتعلقن بأذيال من يريده هو من رجال وان كانوا موضع كره من قبل وكان الساحر يطلب في مثل هذه الاحوال لكي ينجح عمله أن يؤتي له بقليل من دم الشخص المطلوب أو قلامة من أظافره أو خصلة من شعره أو قطعة قماش من ثياب يكون قد لبسها - فاذا حصل على ماطلب، صنع تمثالا من الشمع بشكل الشخص المطلوب (العمل له) ، ووضع في التمثال أو استعمل في صنعه الاشياء التي أخذها ، فاذا تم له ذلك ألبس التمثال ملابس كالتي يرتديها الشخص نفسه حتى يشبهه تمام المشابهة ، ثم يجرى عليه طائفة من الاعمال السحرية ، فكان اذا دق مسمارا في التمثال أصيب الشخص بمرض . واذا قرب التمثال من النار أصابت الشخص حمى خبيثة . واذا طعن التمثال بسكين قتل الشخص أو جرح ويظل الساحر يزاول أعماله حتى يقضي على الشخص الذي يريده ! وقد ورد في النصوص ان هذا النوع من السحر قد استعمل ضد الملك رمسيس الثالث واسكنه اكتشف الامر وقبض على هؤلاء السحرة وصادر ما وجدده لديهم من تماثيل الشمع التي صنعت بشكله كما أوردته ورقة « هاريس » البردية السحرية وورقة « تورين » البردية القضائية أفليس هذا النوع من السحر وعمل التماثيل من الشمع أو الطين ووخزها بالابر واللبايدس هو الذي يستعمله الدجالون في القرى والاقاليم الآن ؟ وكل مالدينا من غرام بالتأمم والتعاويد والاحجية كحجاب الحب والكره والحفظ ، وآلاف التأمم التي تعلق في رقاب الاطمال حتى تطول أعمارهم . كل هذه ان هي إلا عادات ورثناها عن أجدادنا القدماء الذين كانوا لا يسرون خطوة إلا والتأمم ترافقهم وتحميهم ، وزيارة واحدة للمتحف المصري تطلعكم على آلاف التأمم التي استعملها المصريون القدماء .

ويقرب من هذا : اعتقاد العامة اعتقاداً جازماً بالعين وقوة أثرها . فاذا

جاست الي رجل منهم حدثك كيف أن هناك فئة من الناس لا تسكاد ترى شيئاً تعجب به حتى يحصل له حادث ما ، ومن هنا نشأت فكرة تعليق الصحنون على مداخل المنازل أو قرون الاغنام أو عروسة القمح على الابواب كذا طائفة من التمام تراها معلقة على العربات وسيارات الاغنياء والمثقفين بشكل خرز أو قلائد توضع دفعا للعين - فهذه الخرافة ورثناها أيضا عن مصر القديمة ، فقد وجد في مكتبة معبد الاله حوروس في أدفو كتاب مملوء بالرقى والتعاويذ لطرده العين الشريرة . كما أن هناك الشودة معروفة لئلا تحوت يرجع تاريخها الي الدولة الحديثة وقد ورد فيها ما يأتي : « أيها الاله تحوت : اذا كنت تحميني لم تبق بي حاجة الي الخوف من العين » .

ويعتقد العامة المصريون الاحياء أن هناك ساعات من النهار بل أياما معينة لا يحسن بالمرء أن يأتي فيها عملا لانها منحوسة فهذا الاعتقاد في الايام سعادها ونحسها قديم أيضا اذ كان المصريون القدماء يعتقدون أن الايام تكون سعيدة أو منحوسة طبقا لما وقع فيها من حوادث سعيدة أو كريمة في أساطيرهم الدينية ، فالיום الاول من أمشير الذي رفعت فيه السماء ، وكذا اليوم السابع والعشرون من هاتور الذي عقد فيه صلح بين الالهين حوروس وسيت وتراضيا فيه على اقتسام العالم ، كانا يومين كلهما سعد وبركة . أما اليوم الرابع عشر من طوبة الذي بكت فيه ايزيس ونفتيس على أوزيريس فقد كان يوما منحوساً . وكان هذا الاعتقاد من القوة في العصر الفرعوني بحيث أن كثيراً من الاعمال كالبدء في سفر بعيد أو عقد صفقة تجارية أو ما اليها كان يؤجل من أجل هذه الاسباب وما زلنا الآن بعد مضي خمسة آلاف سنة يؤجل أشياء لهذا السبب عينه

وقد اعتدنا في ليلة شم النسيم أن نعلق البصل فوق الاماكن التي تنام فيها أو نضعه تحت الوسادة ، وفي الصباح نكسر البصل ونشمه . وفي بعض القرى

يعلقون هذا البصل على باب المنزل . فهذه العادة مصرية قديمة ، اذ كان الناس في عيد الاله « سكر » إله الموتى في مدينة منفيس يدورون حول جدران هذه المدينة وقد علقوا البصل حول رقابهم ، كما كانوا يعلقون البصل حول أعناقهم في الليلة التي تسبق هذا الاحتفال .

وعند « ج . چ . فريرار » أن السحر يقوم على قانون العطف ، أى على فرض أن أشياء تعمل على تقيضها على مبعدة خلال عروة سرية بسبب وجود التشابه بين شيء وآخر أو أنهما كانا في وقت ما متشابهين أو أن أحدهما كان جزءاً من الآخر ، وأن السحر نظام قد نشأ في الجماعة ورافق وجودها ، أى أنه لا ينشأ مع الفرد الواحد ، إذ أنه لن يعرف السحر في مكان غير مأهول .

أما الطالاسم وهى إحدى فروع السحر فإن القول بأن حياها يؤدي الى فتح السكنوز فقد يكون هذا صحيحاً لأن هناك رموزاً أفضى تفسيرها إلى معرفة أماكن ومناجم معدنية ، قبل ما عرف عن مواطن الآثار القديمة وكنوزها ومناجم الذهب والمعادن النفيسة . أما غير هذا فهو احتيال على العقول .

وقد ورد السحر في التوراة حين ذكرت السحرة والنبي موسى ، كما ورد في أكثر من آية في القرآن خاصة في قصة موسى ، وقد نقل كتاب الفلاحة القبطية الى العربية من الكلدانية في الدولة العباسية ، ووضعت مصاحف السكواكب السبعة وكتاب طمطم الهندى في صورة الدرج والسكواكب ، وقد ألف « صابر بن حيان » كتاباً في السحر والكيمياء وألف مسامة بن أحمد المجريطي في الاندلس كتاب « غاية الحكيم » وهو خلاصة كتب ابن حيان .

وعند « ر . ر . ماريت » أن الدين والسحر شكلان لظاهرة اجتماعية غير منظورة ، وأن الانسان الاول كان يخضع لنظام يعالج ما هو فوق الطبيعة . وفى هذا النظام عناصر كل من السحر والدين ، الذين كانا شيئاً واحداً ثم افترقا

قاصبح الدين هو الاعلى وهو المقر به وهو الاكثر حرمة . غير أنه ما بين ما هو سحر خالص ودين خالص ، توجد عناصر غير متميزة .

ويروى « ديري » أن سكان استراليا الوسطى يجتمعون في حفلة يفتحون خلالها فتحة يقيمون عليها بناء يسع كبار الرجال . أما النساء فأنهن ينظرن اليهم ثم ينسحبن قليلا نحو ٥٠٠ ياردة . وهنا يتقدم السحرة ويدمون اثنين من الرجال ، فيلقيان بأيديهما في الهواء ويأخذ الرجال الآخرون دمهما . أما الدم فرمز للعطر .

الشعوذة

وقد جاء في أحد أعداد مجلة «الهلال» أن الشعوذة في اللغة خفة اليد وأخذ (بضم ففتح) كالسحر يرى معها الشيء في رأى العين بغير ما عليه أصله . والفرق بين الشعوذة والسحر إن الأخير هو عمل شيء فيه مناقضة لنواميس الطبيعة وخروج على قيودها . والمراد منه في الغالب اخراج الباطل في صورة الحق . وفي بعض كتب اللغة أن السحر هو ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الانسان . على أن العلم ينكر السحر لانه يقوم على مخالفة نواميس الكون فاذا كانت هذه المخالفة وهمية أو من قبيل الخداع البصرى فهي الشعوذة والخفة .

وبينا يعتمد الساحر على قوة غير منظورة فان المشعوذ يعتمد على الخداع وخفة اليد .

والارجح أن السحر وجد قبل الشعوذة وأنه تحول اليها بمرور الزمن ، وأثر السحر ظاهر بين جميع الشعوب الهمجية خاصة قبل عصر التاريخ . فلا تجد قبيلة من القبائل المعركة في الهمجية وإلا ولها سحار تحترمه وتتقاد له . بل

لقد كان الساحر أو العراف قديماً زعيم القبيلة وسيدها المطلق ، وهذا ما يجعل زعماء القبائل يلجأون الى الخداع والمخاتلة لضمان زعامتهم على قومهم ، ومع قدم الزمن أدرك الناس أن مخالفة نواميس الطبيعة غير ممكنة ، فالشمس لا بد أن تشرق في النهار ، والنار لا بد أن تحرق ما يلقي فيها ، والحديد لا بد أن يغرق في الماء والسم لا بد أن يقتل من يتناوله . فاذا حدث ما يناقض جميع ذلك فهو شعوضة لا شك فيها .

ولأيضاح ذلك نقول على سبيل التمثيل : أنه لما ذهب كولمبوس الى أميركا في القرن الخامس عشر ، توغل بعض رجاله بين قبائل الهنود الحمر ، فهاجم عليهم هؤلاء ليفتكوا بهم ، وكان البعض يعامون إن الشمس ستكسف ذلك اليوم . فتهددوا الهنود إن هم مسوهم بسوء بأن يطلبوا من « معبودهم » الشمس أن يغضب عليهم ! . . . وما هي إلا دقائق حتى بدأت الشمس تكسف ، فذعر الهنود واستولى عليهم الهلع وخيل اليهم أن أولئك البيض آلهة . فاطلقوا سرايحهم واستغفروهم وقدموا لهم هدايا وتحفاً كثيرة . ولا يزال بعض هنود أميركا إلى هذا اليوم يتناولون قصة الآلهة الذين زاروا بلادهم من أحقاب كثيرة وكشفوا الشمس ! . . .

فما أتاه أولئك البيض لم يكن سحراً إذ لم يكن فيه خروج على نواميس الطبيعة . ومع ذلك عده الهنود سحراً . ولعله أقرب الى الشعوضة منه إلى أي شيء آخر ، إذ ليس في الشعوضة ما هو مناقض لطبائع الأشياء . إلا أن المشعوذ يستغل معرفته لتلك الطبائع ويستعين بخفة يده ومهارته على خداع الناس

ومما يدل على ما كان لسكلا الساحر والمشعوذ من مقام عند الاقدمين (ولم يكن هؤلاء يفرقون بينها) أن ملوكهم كانوا يحيطون أنفسهم بالسحرة والعرافين ففي التوراة أنه لما صنع موسى معجزة أمام فرعون استدعي هذا سحرته وعرافيه

وطلب منهم أن يفعلوا مثل ما فعل موسى . وفي التاريخ إن الاسكندر ذا القرنين كان إذا أراد الخروج إلى الحرب استشار السحرة والعرافين . وكذلك كان يفعل الروم والرومان والفرس وغيرهم . ومن أمثلة هـ — ذا أن كهان معبد دلفي ببلاد الروم قديماً كانوا يشيرون على الملوك وقادة الجيوش الذين يستشيرونهم بأشياء لا يمكن أن يؤخذوا عليها مهما جاءت به الحوادث . قيل إن أحد اقبال الروم استشارهم مرة في محاربة الفرس فقالوا له : « إنك ستخرب مملكة عظيمة » فلما حاربهم انتصروا عليه . وكان تأويل نبوءة الكهان سهلاً ، فإنهم لم يعينوا الغالب والمغلوب ، فكانت النبوءة تحتل الوجهين

وقد كان فراغة مصر يقربون اليهم السحرة والمشعوذين لينبئوهم بالغيب وليفسروا لهم الرؤى والاحلام وليقرأوا لهم الافلاك ويطلعوهم على المستقبل . وكذلك كان يفعل ملوك بابل وأشور والفرس والروم والرومان . بل لقد بقيت تلك البدعة متمكنة من النفوس حتى الآن . وما عهدنا بشعوذة راسبوتين بعيد فقد استطاع ذلك الدجال التفرير بعقل قيصرة روسيا وإيهامها أنه يستطيع أن يفعل ما يشاء لأن له صلة بالعالم غير المنظور . هذا ولا يزال في أوربا كثيرون حتى من العلماء ممن ينخدعون بالدجل والشعوذة . ومن أشد دواعي الاسف أن بعض الخبيرين بأسرار الاستهواء أي التنويم المغناطيسى يستغلون معرفتهم به للتخريب بالناس ولتمويه الحقائق بطلاء الباطل والشعوذة

والقد كانت الشعوذة ولا تزال مرتبطة بالتطبيب والتنجم ارتباطاً وثيقاً . فكان الطب في أطوار الاجتماع الأول مشعوذاً يستعين بقليل من الخبرة وبكثير من الدجل والخداع . فكان إذا دعي لقيادة مريض عمد إلى وصف بعض الأعشاب والمواد والى استطلاع النجوم والافلاك وتنبأ بما سيكون من أمر العليل . ولهذا كان لشخص الطبيب عند الاقدمين حرمة كبيرة وكان الناس ينظرون

اليه كما ينظرون الى شخص مقدس يجب الخضوع له في كل شىء وكان الطبيب أو المشعوذ يرث مهنته عن أبيه ويورثها له. ومن هنا نشأت طائفة السكهان أو العرافين الذين لم يكونوا في الحقيقة سوى دجالين مشعوذين. صحيح أنهم كانوا في أقدم عصور الاجتماع يؤمنون عن اخلاص بما لهم من قوى خارقة قد ورثوها عن غيرهم ، ولكنهم أدركوا مع قدم الزمن أن دعواهم قائمة على الكذب والدجل وأنهم مجردون من كل قوة خارقة للطبيعة . ويقول علماء النفس إن أولئك المشعوذين كان لهم في عدة مواقف فضل على قومهم بما كانوا يوقدونه فيهم من نار الحماسة وما ينفخونه من روح الشجاعة والاقدام . وتفصيل ذلك إن قادة الجيوش الاقدمين كانوا إذا خرجوا للحرب والقتال يستشيرون السحرة والسكهان كما تقدم القول ويذيعون ما يقوله هؤلاء بين الجنود ليشجعوهم ويستثيروا حماسهم. وفي التوراة إن شاول ملك اليهود استشار روح صموئيل النبي فيما سيؤول اليه أمره من محاربة الفلسطينيين فأنبأه بانه سينكسر وبأن جيشه سيهلك ومع ذلك لم يعبأ فكانت آخرته وبالا عليه ، وليس هذا مجال البحث في كيفية استشارة روح صموئيل ، وانما نقول أنها تمت على يد عرافة مشعوذة . وكان هو نفسه « أى شاول » قد قطع دابر العرافين والمشعوذين في مملكته . ولعله أو ملك في التاريخ حرم العرافة والسحر والشعوذة ، فقد كانت هذه المهنة كثيرة الشيوخ بل كانت من مستلزمات الاجتماع في العصور الغابرة وكان النساء الرومانيات كثيرات الشغف بالالتجاء الى المشعوذين لاستطلاع حظوظهن . ولسنا نعلم جيلا من الناس لم تلجأ نساؤه الى الدجالين والمشعوذين لاستطلاع أنباء الغيب والكشف عن المستقبل ، فان مثل ذلك الاستطلاع في خلق المرأة منذ أقدم أزمنة التاريخ ولترجع الى الشعوذة المحضة منذ أقدم الأزمنة ، فنرى أنها كانت شائعة عند قدماء المصريين وكانوا يخلطونها بالسحر . وفي سفر الخروج من التوراة ان

سحرة مصر (ويراد بهم المشعوذون) تمكنوا من تقليد الآيات التي صنعها موسى أمام فرعون لجملة على اطلاق سراح الاسرائيليين . ومن ضروب الشعوذة التي كانوا يمارسونها أنهم كانوا يحرقون البخور في غرفة مظلمة فتعقد في الجو سحب كثيفة من الدخان تظهر عليها صور مختلفة فتدهش الناظرين ، وكانت تلك الصور أو المرئيات تنعكس عن مرايا معدنية مقعرة مستورة عن الانظار ومن أعمالهم أيضاً أنهم كانوا يرسمون صور الآلهة على جدران الاقباء أو الدهاليز المظلمة المقامة تحت الارض ، وما هي الا لحظة حتى تالتهب تلك الصور كأنها بقوة سحرية . والمعروف أن تلك الصور كانت من مواد قابلة للالتهاب فاذا مست النار جزءاً منها سرت في سائر الاجزاء وأحدث التهايبها دهشة عظيمة ؟ وهناك ضروب أخرى من الشعوذة كان يمارسها قدماء المصريين . وعندهم أخذ اليونان حتى قيل أن كهنة دلفي وافسس وغيرهم تلقوا السحر والشعوذة عن المصريين . ومن عادة الرومان أنهم ما كانوا يقيمون وليمة الا وللشعوذة منها نصيب كبير .

ولم يتفق العلماء حتى الآن على تعليل الشعوذة التي كان يقوم بها كهان دلفي ببلاد اليونان . فقد كان الملوك وقادة الجيوش يقصدونهم اذا عزموا على القيام بغزوة أو حرب ويستطلعون ما هو مقدر لهم في صحف الغيب كما قدمنا . فاذا ألقوا على أولئك الكهان سؤالاً سمعوا أصواتاً لا يعلمون من أين هي رداً على سؤالهم . ومن المحتمل أن الكهان كانوا يحسنون اخراج الاصوات من بطونهم - وهو ما يعرف اليوم « بالفتيرولو كويسم »

واذا عدنا الى العصور المتوسطة رأينا أن الشعوذة كانت منتشرة فيها انتشاراً عظيماً . فقد أشار تشوسر الشاعر الانجليزي الى مرئيات غريبة كانت تظهر في بعض الاحتفالات وتمثل مواقع قتال ومشاهد صيد وحوادث مختلفة

وذكر السر جون مندفيل أنه شاهد مثل ذلك في قصر أحد أقيال الشرق .
وروى « تشليني » في أواسط القرن السادس عشر أنه رأى صوراً ورسوماً
مدهشة بارزة على ستار في الظلام في بناء السكولوسيوم بمدينة روما . والارجح
أن جميع هذه المناظر كانت مما يعرف اليوم بالفانوس السحري . وقد كان البعض
يعتقدون أن الفانوس السحري من مخترعات القرن السابع عشر

ومما يجدر بالذكر أن الفيلسوف ديكارت الذي نبغ في النصف الأول من
القرن السابع عشر صنع تمثالا شبيها بالإنسان الميكانيكي الذي شاع صنعه اليوم
في أمريكا والذي يسمى « روبوت » أو « أوتومات » . وكان ينطق
بكلمات وعبارات تدهش السامعين . قيل أن ديكارت كان مسافراً ذات يوم
في سفينة ومعه هذا التمثال . فلما رآه ربان السفينة تشاءم منه وقذفه إلى البحر
وفي أواخر القرن السابع عشر عرض رجل انجليزي يسمى توماس ابرسون في
قصر تشارلس الثاني تمثال رجل يتكلم ويحجب على أسئلة السائلين . وتعليل ذلك
أن التمثال كان دقيق الصنع جدا وكان مجوفاً يختفي في داخله رجل ذكي الفؤاد
يتكلم عدة اللغات ويخرج من جوفه أصواتاً غريبة كأنها آتية من بعد . ولم
تتكشف حلية هذا الاختراع إلا بعد مرور الزمن

ومن ضروب الشعوذة أن أحدهم قد يدفن نفسه حياً ويظل مدفوناً
أياماً في مكان لا يتطرق إليه النور أو الهواء أو الغذاء حسب الظاهر . ومع
ذلك ينتفض بعد أيام من قبره كأنه ينفض عنه غبار الموت .

ومن أعمال مشعوذي الهند أيضاً أنهم يمشون حفاة على النار جيئة وذهاباً
ولا تحترق أقدامهم . ولعل هذا من قبيل الخساع البصري أو لعله يستند إلى

الاستهواء أى التنويم المغناطيسي . وأغرب منه ما يفعله بعض دراويش الهند حيث يلتقي حبلاً فى الهواء فينتصب الحبل فى الجوف ويتسلقه الدراويش كأنه يصعد فى الجو ويظل صاعداً صاعداً الى أن يختفي عن الانظار . وما هى الا لحظة حتى يظهر بين الجمهور بغتة . أو قد يتسلق الحبل الممدود فى الجو ومعه ولده وييده سكين ومتى وصل الى ارتفاع كبير عمداً الى الولد فذبحه والقي رأسه بعيداً وظل الدم يسيل غزيراً . فيهبج الجمهور ويريد الفتك بذلك الدراويش الذى يختفي فى الجو فجأة ومتى هدأت ثائرة القوم ظهر بينهم ومعه الولد المذبوح !

وقد حاول الكثيرون أن يعرفوا سر هذه الشعوذة فلم يوفقوا الى ذلك . وحاول بعضهم رشوة بعض دراويش الهند بمبالغ كبيرة ليكشفوا لهم سر تلك الظاهرة فلم يفوزوا بظائل . وعند بعض علماء النفس ان التعليل الوحيد لتلك الظاهرة هو التنويم المغناطيسى أى أن المشعوذ يستهوى الجمهور وينومه تنويماً مغناطيسياً ويوهمه أنه يرى ذلك المنظر الغريب

ومن هذا القبيل ما عرضه منذ سنة تماماً رجل هندي من البراهمة فى إنجلترا فانه كان يثب أمام جمهور النظارة فى الهواء ويجلس القرفصاء وهو غير معلق بشئ أو مستند الى شئ وكان يظل كذلك مدة وهو مكتوف اليدين وقد تبين بعد ذلك أنه كان فى الحقيقة يجلس على أسلاك حديدية غير منظورة

ويقول الكاتب : لعل أغرب أنواع الشعوذة فى الوقت الحاضر ما يشبه أعمال دراويش الهند من قطع رأس الانسان أو نشر بعض أعضائه جسمه ثم إعادة الرأس المقطوع أو الاعضاء المبتورة الى أماكنها . وليس من السهل شرح هذه الحيلة فى مثل هذه العجالة وانما نقول أنها تستلزم استعداداً خاصاً وأدوات وآلات خاصة .

الخوارقة

كان الانسان البدائي يخاف كل شيء ، يحدث له ضرراً أو هلاكاً كالسيول والامطار الجارفة والاضواري ، وأخذ يتوسل لدفع شرها ويتوهم أنها تمثل ذواناً أو قل إنها أشخاص يجوز أن تقدم لها القرابين وأن يلتبس منها كف الاذى، ومن هنا نشأت العبادة والتدين ، أي أنها انبعثت من رهبة الطبيعة وما فيها وتطورت الى شعور بالارتياح والشكر حين ينجاب غضب الطبيعة وينتهي أذاها وليس بعيد أن تكون هذه الاحداث موضوع رواية يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل محشوة بالمبالغات والالوهام مما يتصوره عقل البدائي الساذج وبما يشهده في حلقات جماعته في دعائهم وشكرهم ، وأن يكون من أثر هذا وضع الأناشيد والقصص والاشعار والموسيقى الهمجية الساذجة .

هذا ويسود المرويات الروح المنفصلة أي استقلال الروح وهي مركز الحياة عن الجسم كما هو المشاهد في القصص الخرافية القديمة ، فهي في الواقع ، متضمنة علوم القدماء وخيالهم وأدبهم وفنهم

الطب والسحر

السامي متفائل بطبعه ، راغب في الحياة آخذ بأسبابها ، رافض فكرة الفناء معتقد في الحياة الاخرى وفي الثواب والعقاب ، فهو - لهذا - ساع لجعل الحياة سعيدة، ومعنى بالصحة وسلامة البدن إلى حد عد هذا عقيدة دينية تطلبه بالطاعة لها . أما ما يحول دون ممارستها فعنده أن ذلك يرجع إلى الأرواح الشريرة ، وكان عنده أن السحر وسيلة للعلاج .

وعند صاحب اللسان أن الطب هو السحر ، الذي قال فيه ابن الاسفلت :
ألا من مبلغ حسان عني * أسحر كان دواؤك أم جنون

رأى المؤلف

لقد أوردنا في ما تقدم آراء العلماء في السحر . وعندنا أن السحر يقوم على عنصرين : أولهما ما ينزل بأعصاب الانسان البدائي والانسان المتحضر نفسه من ضعف وفتور خيال قوارع الزمان وأحداثه . ولما كان في كل إنسان ، مهما تكن منزلته من التحضر والعلم والرقى ، ناحية من السذاجة ، سذاجة الطفولة التي من أثرها التصديق أو الايمان ببعض الأقوال خاصة اذا ما أُلقيت إليه على الصورة التي تستهوى النفس وتغلب الالب وخاصة اذا ما وقع هذا حين ينزل به المكروه ويعز العلاج ويتمس المنسكوب النجاة - كانت النفس الانسانية متأهبة لتلقي ما يشعرها بقوة الشفاء من ناحية علوية أو خفية غير منظورة بعد أن باء العلاج المادى بالفشل ، بل كانت هذه النفس متعطشة لهذا التلويح أو التاميح بالقوة المشار اليها « قوة السحر » أو ليس الانسان هدفا لألوان الخداع والغش والغبن والاحتيال ، حتى إذا لم يزعم المحتال لنفسه قوة سحرية ؟

أما تانى العنصرين فانه يقوم على قوة شخصية الخاتل أو الساحر : زعامته في بنى قومه ، نفوذه الادبى ، ذلك أن نظراته نفاذة وأقواله مؤثرة في نفوسهم ، سواء أكانت موجهة عن قصد التأثير والخداع أم عن غير تعمد ذلك . ومن أجل هذا اختلط على الانسان البدائي ما تتطوي عليه زعامة الزعيم وعلم العالم وسحر الساحر ونسك الناشك وقداسة القديس بل ألوهية الأله ، فقد كان هذا

الإنسان يتصور هذه القوى متجمعة في إنسان أو جاد ما ، وصحيح أن الإنسان عصرنا الحاضر قد أصبح يفرق بين هذه القوى ويعرف الكثير عن مصادرها ، غير أن النفس البشرية لا تزال تنتظر ، إذ تمتحنها المحن ، إلى قوة روحية خفية تنقذها من الخطر ، وقد توفيق النفس إلى هذه القوة الروحية الصالحة ، وقد تخدع بسحر الساحر وتقع في أحبولة المخادع

بل إننا نكاد نذهب إلى أبعد من هذا ، فنقول إنه قد يكون من مصلحة المنكوب اليأس من العلاج الطبيعي أو المادى ، أن تقوي روحه المعنوية بشيء من الاستهواء والمخادعة ، فلقد طابت نفوس يائسة على أثر زيارتها لضريح ولي واستماعها لدعاء جاهل ، أو أقوال قاريء كفى أو « عزائم » أو كاتب « تمام » أو فاتح « رمل أو فنجان » أو المنوم مغناطيسياً أو بعد حفلة « زار »